الفصل السادس

منظور التحليل النفسى للجنوح

1. تصنيف نظريات علم النفس المتناولة للجنوح
   2-1. المنظور التحليلى الدينامى للجنوح
   2-2. رأى القائلين بـ "أنا أعلى" الجانح عنيف
   2-3. رأى القائلين بأن الجانح دون "أنا أعلى"
   2-4. رأى القائلين بـ "أنا" الجانح فى علاقاته مع الآخرين
3. تعليـق

الفصل السادس

منظور التحليل النفسى للجنوح

1. تصنيف نظريات علم النفس

إن المقاربة النفسية لظاهرة الجنوح وما يكتنفها أحيانا من تعدد للتفسيرات تجعل المتتبع للظاهرة يضن أنه ليس هناك توافق، ولو قريب بين هذه التناولات المختلفة .

إلا أن هذا لا يرجع فى نظرنا، إلى أنه فعلا هناك تباين فى التفسير. بقدر ما يرجع إلى تعقد الظاهرة المدروسة فى حد ذاتها، وبالأخص أنها تمس السلوك الإنسانى، من حيث سوائه واضطرابه .

فالاختلاف أصلا قائم حول السلوك فى حد ذاته، من حيث هو(وراثى / مكتسب)، (فردى/ جماعى) ، (لاشعورى / مدرك)، (داخلى / خارجى)، (سوى / مضطرب).

رغم أن مسار هذه الدراسات اظهر على الأقل، أن هناك اتفاقًا نسبياً بين القائلين بأسبقية الوراثة عن البيئة، والقائلين بأولوية البيئة عن الوراثة، حيث وصلا إلى نوع من التكامل فى التفسير.

بينما بقى النقاش على أشده بين القائلين بأسبقية المعطيات الداخلية (الدوافع من جهة والمعتقدات والأفكار من جهة أخرى، والقائلين بأسبقية البيئة الخارجية ومثيراتها المتنوعة).

رغم أن هناك تقاربًا بين النظريات المعرفية والنظريات السلوكية فى تفسير السلوك الإنسانى توج فى ظهور المنحى السلوكى المعرفى الذى يمثله بالأخص كل من (جوليان .ب . روتر، البير باندورا و غيرهم)، والتقارب بين القائلين بتحكم الدوافع الداخلية وبعض السلوكيين مثل " دولارد" و" ميلر" فى نظرية التعزيز.

تميل حاليًا جل النظريات المعروفة (التحليلية، السلوكية، المعرفية، المعرفية السلوكية، الظاهراتية ...الخ). إلى القول بأن أى سلوك إنسانى سويا كان أو منحرفا، يعتمد فى تكوينه على عنصرين أساسيين أحدهما فردى (ذاتى)، وهو الذى يشمل كافة

الخصائص الشخصية المميزة للفاعل، كقيمه، وأهدافه، وإدراكه لمحيطه، ورغباته، ومزاجه، وموروثاته أو غير ذلك من الخصائص الفردية الأخرى.

أما العنصر الثانى فهو البيئة التى تحتضن كافة الظروف والمثيرات البيئية التى تحيط بالفاعل .

وبذلك تتحدد طبيعة الفاعل من تفاعل هذين العنصرين الأساسيين؛ غير أنه إذا ترتب على ذلك أى تغيير فى تركيب أحد هذين العنصرين، فذلك يؤدى إلى حدوث تغيير ما فى طبيعة الفعل ذاته.

وعلى ذلك " فالتناول النفسى " فى ميدان الجنوح يأخذ بعين الاعتبار الخبرات التى تدخل فى تركيب الشخصية الإنسانية، والتى تؤدى بها إلى أن تصبح أكثر من غيرها عرضة لارتكاب السلوك المنحرف فى ظروف بيئية وحضارية معينة . وهذا ما يدخل فى إطار نظرية الشخصية، وهو الإطار الذى يتناول جميع القوى والعوامل النفسية التى تنظم السلوك الإنسانى بوجه عام .

أما "التراث النفسى " الذى تناول الظاهرة قيد الدراسة، فهو كثير بحيث لا يمكن الإلمام به كله إذا طرح بشكل مفتت ؛ مما حتم علينا مبدئيا تصنيفه إلى مجموعات نظرية متقاربة تخدم حقلاً نفسياً متقاربًا.

ولعل المحاولة التى قام بها " د/ عدنان الدورى 1985 " بجمعه لبعض النظريات النفسية فى إطار تناول مشترك، أو أرضية علمية واحدة، قد يسهل علينا الإلمام بسرعة بالتراث العلمى المتناول لظاهرة الجنوح.

كما أنها محاولة تساعدنا أكثر على إعادة تنظيم الجانب النظرى فى دراسته للجنوح؛ الشىء الذى يعطينا فكرة مفصلة عن مدى الاهتمام الذى توليه الدراسات النفسية للظاهرة .

وقد جمعت هذه النظريات على المنوال التالى :

1. **مجموعة النظريات التطورية** : ويقصد به تلك النظريات التى تناولت تطور الإدراك العقلى للفرد، ومدى ارتباط هذا التطور ببعض عمليات الضبط الداخلى للسلوك الظاهر(النظريات المعرفية والظاهراتية).

2. **مجموعة النظريات الخاصة بالتنشئة الاجتماعية :** وهى التى تفترض أن الخبرات الحياتية التى يكتسبها الفرد من خلال مراحل تنشئته الاجتماعية، تشكل الحجر الأساسى فى بناء الضوابط الداخلية للسلوك الإنسانى الظاهر (النظريات السلوكية والمعرفية ...).

3. **مجموعة النظريات الدينامية النفسية:** اهتمت هذه النظريات بدراسة بواعث السلوك الإنسانى العام، بهدف تشخيص بعض العوامل ذات الصلة بنشوء السلوك الجانح، فهى تركز على دراسة تلك الحالات التى يلجأ إليها الفرد لمواجهة بعض المشكلات التى تعترض حياته . وتؤكد العوامل اللاشعورية الداخلية التى تحرك السلوك الظاهر (التحليل النفسى ...).

4. **مجموعة النظريات النفسية الاجتماعية:** اهتمت هذه النظريات فى تفسير الجنوح بربطه بعلاقة الفرد بالجماعة الضيقة التى يعيش فيها، ومختلف الديناميات التى تنجم عن ذلك (كيرت لوين، مورينو،...).

غير أن هذا التجميع لهذه التناولات فى إطار نظرى مشترك بهذه الطريقة قد يجعل المهتم يضن أن هذه النظريات لها حدود معلومة، وهذا عكس ما تحاول أن تذهب إليه كل نظرية . إذ تحاول أن تمد جذورها فى اكثر من أرضية واحدة .. فعلى سبيل المثال : تعتمد بعض نظريات الاتجاه النفس اجتماعى على التفسير التحليلى، والعكس صحيح .

غير أن هذا التصنيف أغفل ما يسمى حاليا بالنظريات التلفيقية الانتقائية أو التكاملية، التى تحاول انطلاقا من مجموعة من النظريات أن تجد تفسيرا تكامليا لظاهرة الجنوح. كما لم يشر "د/ عدنان الدورى "فى تصنيفه إلى ما يسمى بالنظريات الأسرية التى تجعل كل اضطراب سلوكى مصدره الأسرة وما يدور فيها من تفاعل؛ مما يجعلنا نحاول تناول ظاهرة الجنوح من منظور تصنيفى جديد للنظريات المتقاربة للمقاربة النفسية عامة وفق ما يلى : التناول التحليلى النفسى، التناول السلوكى، التناول المعرفى، التناول السلوكى المعرفى، التناول النفسى الاجتماعى، التناول الأسرى (النسقى)، التناول التكاملى التلفيقى .

هذا لا يعنى أننا بالضرورة سنتناول ظاهرة الجنوح وفق كل هذه المقاربات كل على

حدة . وإنما طبيعة الموضوع تفرض علينا تناولات دون الأخرى. وإن كنا قلنا سابقا أن هناك تداخلات بين هذه التناولات المختلفة من جهة، وأن تعدد المقاربات التى تفسر الظاهرة نتيجة لخطورتها؛ إذ تدخل مباشرة فى إشكاليات السلوك المنحرف، أعطى نوعًا من الأهمية العلمية والأدبية للظاهرة عموما. إذا قورنت بالمواضيع المدروسة عادة فى إطار علم النفس .

كما أن الموضوع قيد الدراسة يتميز عن بقية الدراسات الأخرى، التى أجريت فى هذا المجال، بأنه من جهة، يأخذ الفرد فى بعده الذاتى الداخلى، وبالأخص كل ما يهم إدراكه لما يحيط به من مثيرات.. تلك المثيرات التى منها يستقى خبراته وتصوراته وأحكامه الأولى عبر مراحل نموه المضطرب.

فى فترة عمرية محددة زمنيا تبدأ معالم بنائها عبر الطفولة الأولى وصولا لفترة المراهقة. التى قالت عنها جل الدراسات أنها فترة تغير سريع، ومحاولة مواءمة مع المحيط، الذى قد يقف مناهضًا لحاجيات هذا المراهق، مما قد يخلق مجابهة بين المراهق من جهة والبيئة من جهة أخرى، وهذا ما يحتم علينا أخذ بعين الاعتبار المقاربات النظرية، التى اهتمت بهذا الجانب بالأخص، وهى متعددة فى نظرنا، وهى :

1 ـ مقاربة التحليل النفسى من خلال المدرسة الدينامية المتمثلة بالأخص فى العلامة "فريد"، "وميلانى كلاين " وإكهورن، ورايخ، أريكسون، ولاجاش وغيرهم .

2 ـ المقاربة النسقية بنماذجها المختلفة (الزوج لاوبير 1986، وفريشات ولوبلان 1987، وفارينقتون 1986 ...الخ).

3 ـ المقاربة السلوكية المعرفة : من خلال نظريات التعلم الاجتماعى (جوليان روتر، البير باندورا ...الخ).

1.2.التناول التحليلى الدينامى

لم تكن المقاربات الأولى للتحليل النفسى قد اهتمت بالسلوك الجانح، وإنما اهتمت أصلا بالشخصية المرضية .

وبتطور التحليل النفسى، لم يتم دراسة شخصية الجانح دفعة واحدة وإنما ضل تفسير سلوك الجانح مستمرا على يدى كل من (فريد، ميلانى كلاين ، وغيرهم).

وتطرقت إليه مقاربة التحليل النفسى خاصة من خلال موضوع " العدوان "، الذى أصبح يحتل المرتبة الثانية من حيث الاهتمام بعد موضوع " البيدو" فى النظرية التحليلية.

حيث ظهرت وجهات نظر حول العدوانية يقول بها المحللون النفسانيون على اختلاف نزعاتهم، انطلاقا من آراء " فريد" .

يقول فرويد بغريزتين أساسيتين توجهان المعتضى وتمدانه بالطاقة الحيوية هما : "غريزة الحياة (وهى منبع الطاقة الجنسية)، و "غريزة الموت " (تهدف إلى التدمير) وتأخذ طابع مشاعر الإثم وإدانة الذات والقسوة عليها والتشدد معها. وإذا توجهت إلى الخارج فإنها تأخذ كل أشكال العدوانية "فى (حجازى مصطفى، 1980، ص 195). وبذلك اعتبر فرويد العدوان من خلال غريزة الموت، متأصلا فى الطبيعة البشرية، ومستقلا عن غريزة الحياة التى تتضمن الجنسية . فى (نمر أسعد، 1994، ص132).

أما" ميلانى كلاين " وهى من أبرز من تابع منظور فرويد، أعطت اهتمامًا خاصًا للعدوان، الذى كانت ترى أنه يعمل داخل الطفل من بداية الحياة . وكانت تعتقد أن قدرة الفرد على أن يخبر كلا من الحب والنوازع الهدامة هى قدرة فطرية إلى حد ما، فى (إبراهيم عبد الله، عبد الحميد محمد نبيل، 1994، ص 25 ـ 45).

أما " أدلر " فيرى فى العدوان وسيلة للسيطرة والتعويض عن النقص والتغلب على العقبات التى تواجه الفرد . كما اعتبر أدلر فكرة العدوان المحرك الأساسى لسلوك الإنسان، بدلا من" الجنس " الذى قال به فرويد ، فى (حافظ ,قاسم، 1993، ص 5).

ونظرا لأهمية موضوع " العدوان " فى دراسات الجنوح من جهة، وأهميته فى نظرية التحليل النفسى .. يتحتم علينا إلقاء ولو نظرة سريعة على الموضوع فى إطار التحليل النفسى؛ حتى يتاح لنا فهم أكثر علمية للظاهرة المدروسة .

أما الآراء النظرية ضمن مقاربة التحليل النفسى، التى تناولت ظاهرة عدوانية الجانح فيمكن النظر إليها كالتالى :

-2-2 رأى القائلين بـ "أنا أعلى " عنيف لدى الجانح.

-2-3 رأى القائلين أن الجانح دون " أنا أعلى ".

-2-4 رأى القائلين بـ "الأنا " وعلاقته بالآخرين.

2-2 - رأى القائلين بـ " أنا أعلى " عنيف لدى الجانح :

ويمثل هـذا الرأى بالأخص كل من " فرويد، ميلانى كلاين " اللذين يـذهبان إلى أن الجانح ضـحيـة " أنا أعلى عنيف "، يمارس عـلى صاحبـه نوعا من الهـمجـية، ويدفـعه باستـمرار إلى وضعـيات تنتهى بالعـقاب والحط من القيـمة الذاتية . وهو بذلك يحـرمه الوصـول إلى النجاح أو إلى العـيش اللائق، ويدفعـه باستـمرار إلى الـبقاء فـى وضعـية البحث عن العقاب .

إلا أنهما يختلفان فى كيفية حدوث ذلك :

ـ بالنسبة لـ "فرويد " يفـسر ذلك حسب بنية الشخصيـة والصراع القائم بين مكوناتها المعروفة بهـا ، أى إن مكونات ألهو الغريزية التى تعـتمد على "مبدأ اللـذة " تسعى دائما إلى التعبيـر عن نفسها، غير أن الأنا الأعلى الذى يعمل حـسب مبدأ " ما يجب أن يكون عليـه "، وفى حالة الجـانح هنا يكون الأنا الأعـلى لديه على شكل الأب العنيف المنتـقم الذى يعاقب الطفل على نواياه العدوانية التملكية (ظهور عقدة أديب).

هذا الأنا الأعلى الذى يتـميز عـادة بالعنف عند الجانح.. فإنه عـلى خلاف ذلك عند الأسوياء وفى الحالات العادية فإنه يصبح يتميز بالرأفة والتشجيع والتقدير، بالإضافة إلى الحساب المتشدد على الأخطاء.

كما نظر فرويد إلى العدوان على أنه غريزة أوليـة بعد دراسة الحالات الذهانية، حيث وجد المظاهر العدوانية والتـدميرية الموجة للذات بهدف تدميرها.. وليس مـجرد استجابة ثانوية للإحبـاط الناتج عن اصطـدام المطالب الغـريزية بالعـالم الخـارجى، ومن ثم فـإن مفـهوم العدوان لـدى فرويد مهم أهمـية البناء النفـسى للفرد، وعقـدة أوديب، والتطور الليبدى .

ـ بالنسبـة لـ "ميلانى كـلاين " قامت بإعادة تفـسير نظرية التحـليل النفسى، وأعطت مكانا رئيسيا فى تحليلها لغريزة الموت، الأمر الذى نرى أن فرويد لم يقم به .

لذلك ترى " ...أن النكوص إلى مـراحل النمـو النفـسى المبكر، لا يتـضمن نكوصـا لغريـزة الليبيـدو فقط، بل ونكـوصا كذلك للعـدوان والتدمـير ..."(فـرج أحمـد فرج، 1967، ص 13).

كما ترى ميلانى كلاين أن الأنا الأعلى سابق لعقدة أوديب، ويتكون فى السنة الأولى من الحياة .. فهو نتيجة العلاقة الأولى مع الأم من خلال تجربة الرضاعة، حيث تذهب إلى القول بأن " ...علاقة الرضاعة هى التى يكون منها الطفل إما صورة إيجابية أو سلبية عن الأم ومن خلالها نحو الآخرين.. هذه الصورة ترتبط بما تطلق عليه ميلانى "المرحلة السادية الفمية (العنف الفمى من خلال العض والابتلاع والتملك) وهى سلوكيات عنيفة تطبع بطابعها الصور التى يكونها عن الأم وعن ذاته، مما يؤدى إلى نشأة أنا أعلى عنيف أعنف من أنا أعلى الكبار ..." فى (Jean Michel Plot. 1979,p2000).

غير أن هذه الصور، ترى ميلانى أن الجانح يسقطها على الآخرين، مما يتركه يخاف منهم من هجمات الأنا الأعلى العنيفة، الشىء الذى يدفع إلى الهجوم على الآخرين بقصد الاحتماء من الخوف الذى توجهه له موضوعاته الخارجية والداخلة . فيحاول بذلك إسكات صوت الأنا الأعلى بالقضاء على الموضوعات المخيفة (الأم السيئة، الأشخاص العدوانيين خياليا).

هذا ما يؤدى إلى إقامة حلقة مفرغة تظهر على الشكل التالى : القلق من تهديد الموضوعات الخيالية تدفع بالطفل إلى تحطيمها، هذا التحطيم يولد فى نفس الجانح الخوف من انتقام هذه الموضوعات من خلال مبادلته العدوان والعنف؛ مما يؤدى إلى زيادة شدة القلق، وإلى مزيد من نوايا العدوان والتحطيم . هذه الحلقة المفرغة فى رأى ميلانى تكون ما تسميه الآلية الدفاعية، التى تظهر أنها أساس الميول المجرمة والمعادية للمجتمع عند الشخص ، فى (مصطفى حجازى، 1981، ص ص 29 ـ 30).

وعلى ذلك يظهر أن من الصعوبات التى تعترض الطفل فى مرحلة مبكرة هى صعوبة التقمصات Identification تماما مثلما يحدث لدى السيكوباتى والشخصية الاكتئابية . ونظرًا لظروف معينة يستحيل عليه اتخاذ الوالدين كنموذج حب، ومن ثم اتخاذهم كقوة فى حياته؛ مما يجعله يتجه نحو الآخرين وعموما سيكونون من أنداده ليكون معهم علاقة (صديق / صديق)، التى لا تعطى الفرصة لمواجهة الحب والكراهية، وبالتالى لا مجال هنا للأديب ولا للتجاذب الوجدانى حتى ولو حدثت التقمصات كما ترى " بيرجرى J. Bergeretوآخرون 1981 "، "...فإنها ستكون جنينية تتميز بالتقليد والإيحاء والتأثر فقط، وتتكون التقمصات الفاشلة باستمرار وتمنع كل محاولة جديدة .. كل هذه العوامل

مجتمعة قد تؤدى إلى صعوبة تجسيد قانون الأب عند الجانح ..." (Bergeret. J, *et al*.1981,pp 20-22).

3.2. رأى القائلين بـ "أنا أعلى" متغيب لدى الجانح.

ويمثل هؤلاء كل من " رايخ Reich، ايكوهورن Ichtyornis، كيت فريد لاندر K.Friedlander، ونيكوت Winnicott، ...الخ . "حيث يذهب " رايخ " إلى أن الجانحين ليسوا بالظرورة لا يكون لديهم أنا أعلى بالمرة، بل إن كثيرا ما يكون لديهم، ولكنه فى صورة مهلهلة يرتشى فى حالة الجنوح، ويعزل بعيدا وبصورة مؤقتة حتى يتم العمل الجنوحى . وهذا ما يميز الجانحين غالبا بالاستجابة لسطوة النزعات الغريزية، وقد يكون سبب سوء تكون الأنا الأعلى بسبب تعطيل تطور الطاقة الليبيدية، سواء فى الموضوع أو مناط الإشباع .

بينما يبين " إيكهورن " فى دراسته أن الجانحين فى المجموعة العدوانية كانوا يعانون تأخرا فى نمو الأنا الأعلى، واضطرابًا واضحًا يظهر عدم شعورهم بالذنب يرتبط بالأفعال الضارة السيئة.

فى حين وضحت " كيت فريد لاندر " أن تأخر نمو الأنا الأعلى من خلال متابعتها لحالة " الطفل بيلى - " Billy وهو شخصية مضادة للمجتمع ـ يرجع إلى عدم ابتعاد الذات وانغماسها فى الإشباع الغريزى واللذة، ولا يتطور إلى مستوى الواقع، وإذا لم يتعود الطفل فى تأجيل إشباع رغباته الغريزية عن طريق التقمص السليم، حتى ولو كان ذلك بسبب خوف الخصاء، أو بسبب سطوة النزعات الغريزية، أصبح تكون الأنا الأعلى السليم أمرًا مستحيلاً نتيجة سيطرة الخلق الاندفاعى ... .(Kate F,1945,pp196-197)

بينما يفسر " ونيكوت " Winnicott1956 الأعمال المضادة للمجتمع على أنها ناتجة عن " فقر عاطفى مبكر " les carences affectives précoces" لعدم استمرارية الموضوع " l, objet" فى التواجد باستمرار؛ فالطفل فى هذه المرحلة لا يتحمل توالى الأفراد على العناية به أو غياب طويل للأم؛ أى إن غياب " الموضوع " سيؤدى إلى عدم الإحساس بمهاجمة الداخل . وبذلك لايتكون الإحساس بالذنب لا شعوريا، وهو من نتائج الفقر العاطفى المبكر، الشىء الذى يؤدى إلى غياب نمو الأنا الأعلى . فى (Gilbert Diatkine,2001,p35) ؛ بمعنى أنه يرى بأن الأطفال الذين لم يتكون لديهم حس

أخلاقى فى مراحل عمرية مبكرة من نموهم، يكون ذلك بسبب غياب إطار عاطفى وفيزيقى.

هذه النظرة الجديدة إلى موضوع " الأنا الأعلى " أحدثت خلطا فى الدراسات التالية لها؛ إذ وجدنا " " قرين ايكر " 1945. Green acreيتساءل عن ما إذا يمتلك "السايكوباتيون " les psychopathesأنا أعلى قويا .كما قال " لامبل دو قروط Lamp de groot,1948 " بـ أنا أعلى قويا، ولكنه متداخل مع مثالية أنا ضعيف.. وصولا إلى "كاربمان" Karpman,1959 المشكك فى وجود أنا أعلى أصلا لدى الشخصية المضادة للمجتمع. فى (Gibert Diatkine .2001, p30).

2. 4. رأى القائلين بـ "الأنا" وعلاقاته بالآخرين

يظهر أن الأنا قد احتل مكانا بارزا فى طرح المحللين النفسانيين المحدثين، الذين يميلون إلى القول بأن الأنا هو نظام عقلى مسؤول عن الإنجازات العقلية والاجتماعية، وهكذا بدأ التقليل من سطوة الغرائز فى التحكم والميل إلى الدور، الذى يقول به المجتمع فى التحكم.

وبهذا يظهر أن المجتمع ومن خلاله الأسرة والآخرون.. ظهروا مهمين فى رأى هؤلاء فى التأثير على اكتساب السلوك الأطفال، ابتداء من "الفريد أدلر، كارين هورنى، فروم، سولفان مرورا ب. لاجاش، ريدل، لاكان، لافينجر، أريكسون، نوال مايو... وغيرهم ".

وما دام "نظام الأنا" نظامًا اجتماعيًا مكتسبًا من البيئة الاجتماعية، فإنه سيتأثر بالآخرين ، وهى رؤية جديدة خرجت بالتحليل النفسى من الدائرة الضيقة للفرضية الفرويدية القائلة بالحتمية البايولوجية المتمثلة فى القوى النفس/ جنسية كأساس للنمو إلى مجال أوسع استدخل فيه القوى النفس/ اجتماعية، من خلال افتراض " أريكسون 1963 " سير النمو تبعًا لمبدأ التطور المؤكد لتأثير العوامل الاجتماعية فى تشكل هوية الأنا عبر مراحل نموها المختلفة، فى (د. حسين عبد الفتاح الغامدى، 2000، ص 191).

إذ يرى "أريكسون " أن العمل الأساسى للرضيع هو تطوير الإحساس بالثقة بالذات، والآخرين والعالم من حوله، ومتى وفر الأشخاص المهتمون حول الطفل الحب الضرورى له.. فإنه يطور شعوراً بالثقة، وعندما يغيب الحب تكون النتيجة شعورا عاما بعدم الثقة فى الآخرين .. إن الأطفال الذين أحيطوا بالرعاية الكافية سيستطيعون النجاح

فى مقابلة أزمات التطور المستقبلية أكثر من أولئك، الذين لم ينالوا قسطا مناسبا من الاهتمام والحب.

يرى "أريكسون " إن مواجهة الأزمات المختلفة التى تعترض الطفل مستقبلاً فى حياته مبنية على علاقات الرعاية الأساسية القائمة على الثقة فى حنان أبويه اللذين يستجيبان لحاجاته، واللذين يوفران له خبرات مرضية مثل الهدوء والغذاء، والدفء. ومن هنا نفهم أن الحنان والحب والاهتمام كلها عناصر تعطى لنظام الأنا استقراراً، ينعكس أساسًا على سلوكيات الطفل مستقبلاً فى مرحلة المراهقة (مرحلة تشكل وحل هوية الأنا وما بعدها)، (د. عابد عبد الله النفيعى، 1996، ص 70).

فالجانح وفق هذا التحليل الأركسونى هو الفرد الذى فقد فى طفولته الأولى الحنان والحب والرعاية؛ مما جعله يفقد ثقته "بأناه أو هويته" وفى الآخرين حيث يسقط فيما يسميه " أريكسون بـ "أزمة هوية الأنا" حيث يأخذ شكلين : اضطراب الدور، وتبنى الهوية السالب. وبموجب هذا الاضطراب يحس المراهق بإحساس مهلهل للذات وعدم القدرة على تحديد معنى لوجوده، ودرجة أعلى من التفكك الداخلى؛ حيث يصل به ذلك إلى لعب أدوار سلبية فى حياته منها دخول المراهق فى الجنوح وتعاطى المخدرات ... الخ.

أما " لاجاش ".. فقد نظر إلى الجنوح من خلال ما يميز سلوكه من عدوان، ونظر إلى العدوان على أنه ليس أمرا ذاتيا محضا.. بل هو قبل ذلك أسلوب حركى للدخول فى علاقة ..." .(Lagache,1951,p81) ، ومن ثم لا تفهم العدوانية إلا فى إطار علائقى .

ويعزى " لاجاش ذلك إلى فشل واضطراب عملية التطبيع الاجتماعى لأن العلاقة الأولى مع الأم تكون قد فشلت، وإن لم يتم تقمص صور الآخرين بصورة طبيعية؛ مما يخلق نوعًا من الأنانية يوصم بها شخصية الجانح، فيتعذر عليه اعتبار الآخرين، ويسقط فى اتهام الآخرين (علاقة اضطهادية)، نقص الضبط الانفعالى، ...، ومن ثم نفى قيمة الآخر، والقيم العامة. وهو هنا يكون قد فشل فى إقامة علاقات إيجابية ..." فى (د/ مصطفى حجازى، 1982، ص 44).

وبذلك يبحث الجانح عن هذه العلاقة من خلال الانتماء إلى جماعة الجانحين؛ أملا أن يجد ما يعوض له العلاقة المفقودة .

أما" لاكان " فهو يذهب مذهب " لاجاش "، عندما يقول إن السلوك الجانح هو أساسا حوار عنيف بالطبع على شكل محاولة للدخول فى علاقة مع الآخر ، من خلال العنف الجسدى أو المادى يحاول الجانح أن ينتزع من الآخر ككائن ذى قيمة ...وإلا سوف يحس بعدم الوجود ... "فى (مصطفى حجازى ،1981، ص 45)، وهو الإشكال الذى يحاول التهرب منه.

وفى ذلك يعلق " مصطفى حجازى 1982 ". "... إن سلوك الجانح لا يمت بصلة إلى المجانية والعبثية اللتين يتعرض لأن يوصم بهما ...واستعماله للعنف ...يغير من نظرتنا لذلك السلوك وموقفنا منه ...وبفهمنا لندائه نكون قد أعدنا فعلا الحوار الإنسانى الإيجابى معه، وبالتالى أعطيناه إنسانيته ...عندها يكون الانحراف كنتاج لعلاقة مرضية قد زال..." (د/ مصطفى حجازى ،1982، ص 45).

3-تعليق:

هكذا عموما يلاحظ أن اضطرابات السلوك الجانح حسب التناول التحليلى الدينامى ترجع أصلا فى نشأتها إلى الصراع، الذى يقوم بين القوى الفطرية، أو ما يسمى بالغرائز الأولية، وينشأ هذا الصراع ذاته عن كبت مثل هذه الطاقات الغريزية بشكل يجعلها تسعى بشدة إلى إشباعها أو التعبير عنها بأسلوب رمزى مقنع . كما أن مثل هذه الاضطرابات السلوكية الوظيفية قد تكون حصيلة تنشئة اجتماعية بيئية؛ بحيث تضعف قدرة الشخص على ضبط مثل هذه الدوافع الفطرية المتصارعة .

إلا أن ما يلاحظ على هذا المنظور أنه أعزى السلوك إلى مصادر بيولوجية أصلية، واضعًا البيئة كإطار ثانوى . ومن ثم.. فإن كل الدينامية بالنسبة إليه هى دينامية داخلية ناتجة عن الدوافع المتصارعة فيما بينها وبين الخارج . وهذا ما يجعل سلوك الجانح أو الطفل، رهين هذه الصراعات الداخلية، التى ما أن تنتهى حتى تبدأ من جديد.. وبذلك يصبح الفرد ـ سواء كان سليما أو مريضا ـ لا حول له ولا قوة فى توجيه سلوكياته.

وإن كان يظهر أن مقاربة التحليل النفسى، جعلت علاقة الأم بطفلها أساسًا لبناء شخصيته وسلوكه مستقبلا . لكن هذه العلاقة ظلت رهينة الجانب البيولوجى، وما تقدمه من درجة إشباع لإرضاء الدفعات المتناقضة داخل شخصية الطفل . وبذلك تصبح الأم مجرد كفيل لوقت معين، وهنا تتشابه الأم الإنسانية مع الأم الحيوانية إذا صح التعبير.

رغم أنه بالإضافة إلى دعمها القاعدى والأساسى (البيولوجى)، إلا أن دورها لاينتهى بانتهاء الدعم البيولوجى، ولكن يتطور إلى ممارسات أخرى بالأخص التلقين الأولى أو التعلم الأساسى لمبادئ التعامل مع المحيط وكيفية التكيف معه.

كما أن التحليل النفسى لم يهتم كثيراً بدور الأب، رغم ما أشارت إليه الدراسات الحديثة ومنها بالأخص دراسة " والون .هـ Wallon.H 1952، والدوشر Wildocher 1965، لوكاميس .ج Lecamus.J 1995، جرار بوسان Gérard Poussin 1999 من دور أساسى للأب على غرار دور الأم . وسيوضح ذلك أكثر فى الفصول الأخرى.

وهكذا سقط التحليل النفسى فى عزل الأم والطفل والدينامية الدائرة بينهما (فرويد، ميلانى كلاين، لوبفيسى ... وغيرهم)، متناسين أن الأسرة هى نسيج من العلاقات ممتد إلى كل أفرادها، إنما تختلف أهميتهم حسب دور كل منهما، وحسب عمر الطفل. وإن كان هذا الكلام أشار إليه رواد المدرسة التحليلية الحديثة الذين أعطوا أهمية لدور الأنا وعلاقته بالآخرين .

هذا المنظور التحليلى انعكس على تفسير ظاهرة الجنوح؛ مما جعلها مرتبطة فقط تارة بغريزة الهدم وطورا بنظام ألهو، أو يحكمه الأنا الأعلى العنيف، أو نتيجة غياب الأنا الأعلى .، أو نتيجة ارتباط الأنا بالآخرين... إلخ ؛ حيث يركز هذا المنظور على البعد الذاتى من مشكلة الجنوح؛ أى أنه يعتبر مصدر الاضطراب سواء اتخذ شكل العصاب أو الذهان أو انحراف داخليا، لا يتدخل المحيط إلا بشكل ثانوى فيه.. عكس المنطلقات الحديثة فى التحليل النفسى التى تقول بعدم إمكانة فهم اضطرابات الطفل بمعزل عن علاقته بوالديه.

يلاحظ من خلال هذا التناول أن التحليل النفسى وكأنه ينظر إلى أن هناك "جانحًا نموذجياً"، وهذا ما يرى فيه " مصطفى حجازى 1981 " أنه تعميم، ويضيف "... على أن المنحرفين فئات متعددة لكل منها نوعيتها من حيث النشأة والصيرورة والنمط الوجودى العام رغم أوجه الالتقاء بينهما. وهناك ضرورة عملية لأخذ هذا التنوع بعين الاعتبار إذا أردنا علاج الجانحين. علينا أن نفهم كل فئة منهم، ونتعامل معها تبعا لخصائصها النوعية وموقعها من المجتمع ومن العلاقات، ومن القيم الحياتية ..." .(مصطفى حجازى، 1981، ص 48).

ولذلك يبدو ـ رغم أهمية هذا التناول ـ إلا أننا سنتعرض إلى صعوبة فى حالة تعميم العلاج الذى يقترحه التحليل النفسى، وبالأخص وفق منظور "فريد و ميلانى كلاين ".. ذلك أن الظاهرة الجناحية محكومة بعدة عوامل، منها: العوامل الذاتية الواعية واللاواعية التى تكلم فيها التحليل النفسى.. بالإضافة كذلك إلى العوامل البيئية الاجتماعية، والدور الذى يلعبه السلوك الجانح على مستوى البنية الاجتماعية (الأسرة، جماعة الرفاق، المجتمع).. كلها عناصر متفاعلة ديناميا، نرى أن الأخذ بها يمكن أن يسهل عملية العلاج. وهذا ما أشار إليه التناول النفسى التحليلى الحديث، الذى أعطى بعداً أهم بالنسبة لتأثير البيئة الاجتماعية، وانعكاساتها على تكوين " نظام الأنا " فى علاقاته بالآخر.